هل الثورة

حق من حقوق المجتمع ؟

للأستاذ إلياس بطرس

الثورات التي نشبت في الماضي جاءت حرباً على الطغيان والفساد ، وسعياً وراء الحرية والإصلاح ، فهي ، ليدة الظلم والمساوىء . وهذه الحركات التاريخية العنيفة — مهما يقال فيها — كانت المدماك الأول في بناء عظمة الأمم التي قامت بها ، وهي في سيرها لا تنفك تسترشد بأنوارها وتحيا بمبادئها . وهذه الأمم التي ثارت بانت القدوة الصالحة والمثل الأعلى في نشر الشعوب التي تخبط خبط عشواء وتتعثر في سيرها . ولهذا نراها تدأب في نفخ روح الثورة في أبنائها لغية نسف المفاسد ووضع الأسس لحياة جديدة فاضلة . ومع ذلك فإن الثورات لا تزال تلقى المغالين الذين يذهبون بعيداً في مدحها أو ذمها . وتقضي الحكمة أن نزن الأمور بالعدل ، وأن نتحلى بسعة الصدر والتجرد عندما نستعرض حياة أممنا . أولئك الذين انتفضوا منذ مئة من الزمن وعكروا أمنها الداخلي ، ودمروا وقتلوا أحياناً ، فليس يجب أن نعتبرهم مجرمين ، إذ لم يكونوا إلا قد يحسنون إلى الأجيال القادمة التي ترتقي عن العالم وتمتلئ مفاهيمهم ، إن الاضطراب الذي يحدث لا بد من أن يتمخض عن أهداف وثمرات لا تتحصل إلا بعد قليلة مستيقظة تائقة .

في أمتنا نفر من الثوريين ولا نعطف على الثائرين الذين يكرهون الراحة والهدوء . إنهم يحاربون الأوضاع النظام الاجتماعي القائم . إنهم يحتمون الثورة خوفاً من أن تفاجئنا بضياع القيم الراسخة دون أن نأتي بما يعوضها أو يقوم مقامها . ونخشاها أيضاً لأننا اختبرنا في الماضي الثورات الدامية التي تثير الذعر والفوضى ، وتحدث كثيراً من الخراب في

كافة المرافق ، وتستتبع الأمراض والأوبئة وتسفك الدماء البريئة ، وتعرض سيادة الأمة للخطر الخارجي . ويقتضينا الانصاف أن نقرر أن الثورة لا تستهدف سوى الأنظمة القائمة التي تعتبرها عكساً للفساد والتسلط ، وأن كل تغيير اصلاحي يحدث انقلاباً لا بد من أن تكون عنيفة أحياناً ، وهي حالة طبيعية لرد الجماعة . وبما أنها لا تعلن إلا لازالة الامتيازات المتوارثة أو الناشئة التي يتمتع بها أقلية ضئيلة دون سواها ، فهذه الأقلية التي تتكتل في مصالحها ترى الثورة عملاً اجرامياً . وإن الفئة الحاكمة التي تقوم الثورة تسخر كل قوى الأمة المنظمة في قبضتها . وهي لا تقل عن الفئة الثائرة خروجاً على القانون وتدريباً لمصالح الأمة العليا للخطر . فتصبح نفسها أن تدخل في النزاع دولاً أجنبية تستعين بها على قمع الثورة ، وتفسد البيوت ، وتساعر الأرزاق وتتطرف في الانتقام من عصا ارادتها . أن الفئة الحاكمة في صراعها لا تستهدف سوى الأشخاص الذين خرجوا . ومن دأب الحكومات في كل العصور أنه تقاوم الثورات دون أن تقرم بثورة ، وتكافح الأفكار الجريئة دون أن تثور القيادة .

❁

ليست الثورة ثورة طارئة ، وليست عملاً ارتجالياً ، سطحياً في أسسه ، تافهاً في مقاصده . إن لها أصولاً تتفرع لتثور في نفوس الأفراد وتكيف هذه النفوس وتؤهلها لتقبل حلول جديدة للعناصر الراهنة . ومن الاقتناع بصواب هذه الحلول ينشأ الايمان الحار بعظمة هذه المبادىء والاستماتة في نصرتها . إن الثورات لا تنشأ إلا عن الاستياء الذي يحصل من جراء عجز الأنظمة أو عمتها عن مجاراة سنن التطور فتصبح بعيدة وغريبة عن مقاصد المجتمع ومقاصده . وأكثر ما تتجلى القابلية للثورة في الشباب الذي يحفظه بالحيرة والقلق ويتبرم من النظم الاجتماعية ، ويفيد من القوة والنشاط والطموح ما يحتم على الثورة . وفي المجتمع من الشر بقدر ما يخلو انظمة بينة من النفوس . ومظاهر الترف التي تميز بعض الفئات ، والنصيب من الرفاهية التي تنعم بها ، والبطالة التي تورث الفراغ والحقد ، كل هذه تغذي الاستياء وتنميه . والنفوس أفضل تربة ينبت فيها الاستياء ويزدهر . ولهذا نرى الثورات كثيراً ما تقوم على أكتاف الذين لا يملكون . ومن الوهم ألا يرى الظلم والفساد الأمن نافذة الفكر ، ولا ينشد العدل الاجتماعي إلا من يجرعه البؤس . ولهذا تستصحب الثورات الهدم الذي يصمل النظم والقيم والعمران ، لأن هذه الفئة التي تقبض على ناصية الأمور لأول مرة تجري الثأر لكل الخلجات التي اكتوت بنار [illegible] وأكثر ما يخشى من الثورة أن تؤول الأمور إلى الغوغاء التي تطغى وتستبد كل [illegible]

جميع المثاليين لغير النظام والشعب جوهراً والنظام فوضى . على أنه لا ينبغي لنا أن نصرف في الأحوال التي تسوغ الثورة . لأن البؤس اذا ما استعمل اتقى العزم والشجاعة . فاذا اضطر الناس للحصول على الضرورة فقط لا يستطيع ممارسة الصراع لتحقيق الحرية . ان البؤس يطفيء الشعور الشعب وطلب الاستقلال أو التحرر . وهو في كلا الحالين لا يغير شيئاً من جوهر الأمور . والثورات الحقيقية التي تغير وجه التاريخ لا تحصل وتنتصر ما لم يدفع إليها رجال الفكر الذين يتولون قيادة الكفاح وادارة السبيل . وليست القوة المتشتة في الجماهير الثائرة هي التي تحدث الانقلاب بل الفكرة التي تحركها وتسيرها .

اننا نعترف بالثورة لا كحق في الحرية يستلهم حقاً في الصراع لتحقيق الأفضل . ولا معنى لسيادة الشعب وحده في تقرير مصيره ما لم يكن له الحق في تجديد وجوده والثورة على أوضاع عرضة خلقت من كل ديناميكية ، وأصبحت عائقاً يعترض التقدم والتطور . ان هذه الأنظمة الشيخة التي تبغي الثورة استبدالها قد ارتضتها الجماعة في مبدأ الأمر على أنها ضمانة لحاسلها حققة لأهدافها وتعهدت أن تتقيد بها وتحافظ عليها . لكن المشيئة البشرية من طبيعتها أن تتغير ومتى تطورت المفاهيم أفلا يمكننا الخروج على عقد أصبح ضرره يربو على نفعه ؟ فالمبادىء مهما تكن عظيمة لا يجوز التمسك بها وبذل النفس في سبيلها إذا كانت لا تعمل على ترقية حياة الأمة . لأنها انما وجدت في الأصل لخدمة الشعب ومتى بطل نفعها فيجب علينا أن نتخلى عنها . قال أنطون سعادة : « ان المبادىء توجد لخير الشعوب لا الشعوب للمبادىء ، وإن كل مبدأ صحيح يجب أن يكون لخدمة حياة الأمة » .

❖

من الاعتراضات التي يتوهمها أعداء الثورة أنه لا يحق لنا قلب نظام الحكم ما لم تأت الحركة تعبيراً صحيحاً عن الارادة العامة بعد تلاع الأنظمة في الفساد ومخالفة مقتضيات العقل . لأن رأي المجتمع لا يتعلق بي فقط ، بل بهم سائر المواطنين . لكن التاريخ يظهر لنا أن كل ثورة قامت بها فئة قليلة بيد أن هذه الفئة على قلتها تمتاز بعمق النظر وتتركز في سادتها جميع الأماني التي تكمن في أعماق الشعب . أما الأكثرية فمن أبرز خصائصها أن تظل سادرة تتقبل كل شيء . وهذه النظرة المحافظة تعرقل العمل الثوري من ناحيتين . أنها لا تحسس له ولا تناصره ، وأنها قد تلجأ الى مقاومته . لكن هؤلاء الرواد

قد يتقاعس همهم مع الزمن ، لأنهم يعملون على تقريب قضيتهم الى الاذهان ، أو لأن الظروف تظهر صلاحها كعلاج للازمات . وليس بغريب أن يشقوا طريقاً الى صفوف خصومهم ويجدوا بينهم الأعوان المخلصين .

ويرى البعض الآخر في النظم النيابية مندوحة عن الثورة مهما تكن السبيل اليها مهدة ، لأن ما يكبد قطرة من الدم لا يعادل ثمنه قطرة واحدة من الدم ، ولأن مساوئها في جميع الحالات تربو على حسناتها . ونستطيع بلوغ النتائج ذاتها فيما إذا اتخذنا التمثيل الشعبي وسيلة ، وعولنا على الزمن الطويل الذي يأتي بالتطور البطيء . هذا الرأي صائب عندما يعمق الوعي ويتسع وتصبح النيابة حقاً ومسؤولية وواجباً ، ويبلغ الشعب درجة عالية من الثقافة وتهذب النظم القائمة على الاقطاع في البلدان المتأخرة وعلى القناطير المقنطرة في البلاد الرأسمالية ، وعلى الحكومة البوليسية في الدول ذات النظام الاستبدادي وفي جميع هذه الحالات تنتفي حرية الناخب بسبب الاغراء أو الارغام أو الارهاب . من العسير على الشعب أن ينتظر السنوات الطويلة ليتطور ويتقدم . أما اذا وثب فانه يستطيع بلوغ أهدافه بسرعة ويحقق خلال سنوات ما يستغرق تحقيقه أجيالاً . لأن قوى الرجعية والاستبداد لا بد من أن تتألب وتضع المعي في عجلة التقدم . وإذا قدر لنا أن نسجل بعض المآخذ على الثورة في البلدان المستقرة المتطورة فانها تبدو ضرورية جداً في المستعمرات ومناطق النفوذ الأجنبي ، لأن استتباب السلام يساعد المغتصب على تثبيت قدمه وتعاديه في السيطرة والاستغلال .

إن الحكم على الثورة لا يقوم على أساس الفشل أو النجاح التي تصادفه . فلكي نزنها وزناً صحيحاً ينبغي الوقوف على الغايات التي دعت لاعلانها . فاذا ما ظهر فساد هذه الغايات جرى الحكم ببطلان الثورة . ومن خلال هذه النظرة سيحكم التاريخ على الفئة المحافظة الحاكمة التي قامت الثورة لصيانة الواقع يقيناً منها أنه أفضل من كل مستقبل غامض ، ويطلق حكمه على الفئة الثانية التي ما سعت للقبض على السلطة إلا لتقيم أسساً جديدة للحقوق والواجبات . ومن الخطأ الحكم على العمل الثوري في الزمن القريب من ظهوره . انما يجب أن ندع مجالاً للزمن كي يزيل في أذهاننا الانطباعات الخاصة ، وتتيح للأراء النظرية أن تتعمدنقيا وأعمالاً وبذلك فقط يظهر صحيحها من فاسدها . إن الحلول الثورية لا تظهر على حقيقتها إلا في السياق الطويل متى تكاثفت كل الفئات من رغبة

... المشروع هذه التجربة رأينا ما كانت نتائج الثورة فانها تظل في حرب ... السيادة أو تسبب خسارة جزء من أرض الوطن . وليست الثورة ... عن الميادين الحسنة التي تحيش بها صدور المواطنين الواعين في الأمة ، إنهم ... من الوحدة التي تتردى فيها . وكل اجتماع في زمن واحد قوتان مختلفتان ... خصائصهما واهدافهما تقع الثورة : الأولى محافظة تدين بالاستمرار ، والثانية تأخذ ... السرعة في التطور والتقدم .

❖

... الثائر مجرماً فيما يقترفه . إن صدره لا يتنزى حقداً على الناس ولا يبغي ... الشر لهم بل انه قلما يثور بالحية لا يبغي سوى الخير لأمته وبلاده . انه لا يعمل في الظلام بل في وضح النهار على أسس صريحة من المبادىء . وهو في محاولته الاصلاح لا يختلف عن الطبيب الذي يقصد شفاء المريض لا عذابه . لكن العذاب مصاحب لعملية . في خلال الفترة التقليدية المحافظة يتراءى كل مشرع وكل مصلح مجرماً . لأنه عندما حاول أن يجر المجتمع بأنظمة جديدة قد خالف القوانين الموضوعة المرعية . وهذه الخالفة تحدث بصدد اصلاح كل نظام سياسي أو اقتصادي أو معتقد ديني .

إن الشعوب ، بله الأفراد ، لا يتملكها الوعي الصحيح ، ولا يستيقظ وجدانها القومي إلا متى بلغت نفسها كيانها الخاص ، وبذلت في سبيل هذا البناء الكثير من الجهد والجهد يسبب آلاماً تظهر من الادراك . الثورة ولادة شاقة . لكن علينا أن نغوص في بحار من الآلام لنعود بلآلىء الحقيقة الفاخرة .

(صافيتا — سورية)

[للبحث بقية]